(2)

قبور فوق الأرض

خرج من البيت لا يُلوي على شيئ وَاتجه بِخُطَى سَرِيعَة يقطع الزقاق، ليبلغ الشارع حيث يجد في آخره الصيدلية الكبيرة الواسعة. كُل ما كان يُريده ويُفكر فيه ان يصل إلى الصيدلية بسرعة، لكي يَبتاع الأَدوية التي أُوصي بِها الطبِيب قبل ان يغادر منزله. لقد سمع الطبِيب يَقُول لهُ ولأبيه وحدهما " ان الأمر في شِفائها ضَعِيف بَعض الشيء، ألا آننا سنبذل كل ما في وسعنا ولم يزِد على ذلك بل وعد بِالعودة في اليوم الثاني.
لِذلك كانَ أَمله كله مُتعلقاً بِهذِهِ الوصفة الطِبية التي كانَ يُمَسكَ بِها وهُو يُهَرول في سيره .
وحين بلغ أول الشارِع تطلع إلى آخرهُ، فرأى أَنوار المتاجِر مضاءة كلها لم يُطفِئ واحد منها، فشعر بقليل من الاطمِئنان إذ عرف أَن الصيدلية لم تُغلق بعد وانهُ لن يضطر إلى اضاعة الوقت في البحث عن صيدلية أُخرى ومن يدرِي قد تكون بعيده في هذِهِ المَدِينَة المُترامِية الأرجاء.
غير ان شيئاً من الخوف كان يساوِره حول ثمن الدواء، فقد كان في الوصفة أَسماء كثيره من الأَدوية ومع أنه كان في أَوائل الشهر، أَي انه كان يعرف أَن ليس للراتب بركة كما يقُول الناس فِي مدِينته وها قد سلخ منه الطبيب بزيارتهُ قسماً وعسى ألا يحتاج إلى أَطِباء آخرين يأتون على البقيةَ الباقَية من راتِبه.

قال في نفسه " أَرجو أَلا يكون الدواء غالِياً " ولكنه كانَ يعرف أَن هذه أَمنية بعيدة المنال،
فالأدوية غالية الثمن وهو يعرف ذلك حق المعرفة.
ولج باب الصيدلية فَبهرتهُ أَضواء النيون ومعروضات الواجِهات الزجاجِية وليس يدري لماذا شعر كأَنه يدخل ملهى ليلي، عند ذلكَ فقط تَذكر هذهِ الجُملة الوحيدة التي نطقت بِها أمه " لا حاجه للدواء، أُريد قبراً واسعا " لقد تذكر أُلان هذه الجملة التي قالتها له أمه ولَكنه لم يلتفت إِليها آنذاك وما وعى لها معنى، ثُم ها هي تُبرز فجأةً في ذهنه وتلح عَليه إِلحاحاً شديداً " لا حاجة للدواء، أريد قبراً واسعا " حقا لقِد قالت له أمه ذلك وهي شبه غافية في فراشها الصغير الذي وضع على المقعد الخشبي الوحيد في البيت فشكل شيئا ما يُشبه السرِير. وأثناء جزء مَن شروده هذا اندفاع الناس بِين داخل وخارج في بهو الصيدلِية الواسع ورأى نفسهُ يتقدم نحو الصيدلي القصير الذي كان يرتدي بالطو ابيض، فترتطِم رجله بِالميزان الرابض في الطرف الأَيمن من الصيدلِية ، تفحص بِمهارة وَسرعة مدهِشتين وعجب في نفسهُ من سرعة هذا الصيدلي وخشي أَن يُخطئ وهو في غمرة سرعته تلك فيبدل دواء بِدواء .
رصف الصيدلي الأَدوية على اللَوح أَمامه وراحَ يحسب ثمنها وأُضاف بِسرعه وهو يضع الأدوية في صره أَمامه :
خمسمائة جنيه وخمسه عشر جنيها .
فأطرف قليلاً ، لكم ود لو يفاصل الصيدلِي ويساومهُ على عادته كلّما دخل متجراً ولكنه تمالك نفسه وصرف هذا الخاطر عَن ذهنه بقوة ولم يلبث أَن رفع نظره الضعيف إِلى الصيدلي وأَستجمع شجاعته ثم قال : -أَلا يمكِن الأَستغناء عن بعض هذه الأدوية؟

لا يدري كيف جاء هذا الخاطر، أَلا أَنه أُعجب بهذه الفكرة التي طرأَت على بالهُ فإذا لم يكن هُناك مجال لخفض سعر هذه الأَدوية فلِيختصر منها على الأَقل.
نظر إليه الصيدلي طويلا وهز رأسه عدة مرات ثم قال وهو ينقر على البلاطَة البيضاء أمامه : يُمكِن الاستغناء عَنها جَمِيعاً
كانَ يَعرف أن من عادة الصيادلة لا يطِيلوا الحديث مع زَبائِنهُم ولم يدر لِماذَا أبدى الصيدلي رِحابة الصدر هذه، اتراه أشفق عليه،
فسألهُ : كيف الاستِغناء عَنها؟
عند ذلك نظر إليه الصيدلي نظرة جامدة كنظرة حامل الموت وفتح الصُرة ببطئ ثُم سحبها ووضعها أَمام عينيه فكادت تمس أَنفهُ وقال له : - مُورفِين.
فهز رأْسه وَلم ينطق بحرف.
فأعاد الصيدلي كلمته بشيء من النزق :
- مُورفِين
كان في صوته ما يشبه الصراخ وكأنه يرِيد أن يقول له "أَلا تفهم " ولكن عينيه ظلتا معلقتين به كأنهما مسمرتان ، فأدرك أَنه لم يفهم معنى كلمته فعلاً .
من المريضة؟
- أُمي
- وقال تقيأت؟
فسارع إِلى الجواب كأنه وجد في سؤال الصيدلي بشيراً بِالبراء :
-نعم، نعم، صباح هذا اليوم .
عِند ذاك ضرب الصيدلي كفا بِكف وتمتم :
- أَن انتشار هذا المرض ليدعو إِلى الخوف والفزع.
ما أعظم هذا الصيدلي الطبيب، فَهو يكاد يساوي الطبيب في فهمه.
- وهل عرفت مرضها؟ .

لم يجبه بِكلمة بل أَعاد الإِبرة إلى الصُرة وربطها بِتؤدة وقال كمن يخاطب نفسه : .
- إِبرة كل يومين، ثم إبرة كل يوم، ثم ابرتان في اليوم الواحد وهكذا.
وَلكن الطبيب قال لنا هذا الدواء سيخفف عنها أَلمها.
هذا صحيح ولكن المورِفين ليس دواء.
نعم، لا شك، ان في العُلب الأخرى فيما أَظن الدواء.
مقَويات، مجرد مقويات.
أَطباء هذا الزمان يخدرون الجسم فيضعِفونه ويعطونه في الوقت نفسه المقويات وهم يعلمون حق العلم أَن ما من دواء لهذا المرض.
وسأَله بلهفه :
وما هذا المرض؟
أَنني لا أُفهم ؟
قال الصيدلي بلهجة ملؤها البساطة :
السرطان .
فغر فمه دهشة ولم يعد يدري ماذا يقول ، وجد نفسه يدفع إلي الصيدلي المبلغ المطلوب ويحمل صره الأدوية ويمضي .
وحين كاد يبلغ باب الصيدلية ألتفت فجأه نحو الصيدلي وقال له :
شُكراً .
وأُشار إِليه الصيدلي أَن يقتَرب فأَقترب مِنه محازرا فهز الصيدلي رأسه وهو يحدق بعينه، قال له بصوت فيه شيء من المودة والحنو تشجع يافتى فأَنت رجل .
لم يجبه بكلمة بل أنطلق صامِتا .
كانت الصيدلية خالية من الناس وراح أَحد العاملين بالصيدلية يغلق الأبواب الجانبية وحين انتهى إِلى الشارع وجد نفسه يخفف من

سرعته ويسير ببطئ، غير آبه لهذا الدواء الذي أَنطلق مسرعا بشرائه مقدرا أن أمه ستجد البرء فيه بعد ساعات قليلة .
وعاوده صوت أمه وهو يسير مستأنيا في ليل الشارع الطويل، ألعلها كانت تدرك بِحدسها أَن مرضها هذا لا شفاء مِنه، فتمنت أَمنيتها الأَخيرة .
وراح يفكر بمعنى كلمتها، فلم يفهم لها معنى. فِيما أَرادت قبراً واسِعا وما فائدتها ؟ أَلم يكن أَجدر لها أَن تطلب أَمنية آخرى .
أي أَمنية؟ لا شَك أَن الألم كان يضايقها فلم تكن تَعي ما تقول . ولكن سرعان ما عاد صوتتها إلى أَذنهُ قويا حادا كأنه صرخه أَلم تنبعث من فم طفل صغير " أُريد قبراً واسعا " وَتذكر آنها كررتها مرتين وكأنما كانت تخاطبه وحده بكلماتها تلك مع أن آباه وإخوته كانو حولها .
وفجأه ألتمع في ذهنه معنى كلماتها حدث ذلك على نحو سريع جدا حتى لعجز الإنسان أَن يقدر عظيم سرعته، كوميض برق، أَو رفه جفن خاطفة أَو مذنب يهوي سرِيعاً من إِحدى النجوم فتلْتقطه نجمة أُخرى.
آه صحيح وهز رأْسه، صحيح جداً ، كيف غابت عن ذهنه كل تلك الصور والذكريات التي طالَا رددتها أمه على مسمعه منذ طفولته إلى اليوم .
نقل صره الأَدوية من يد إلي الأخرى وعاد بذهنه إلي البيت وأمه .
فأحس بكثير من الشفقة نحو أُمه وشعر بالوقت نفسه بالعجز، العجز المطبق، فهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً وان مرتبه بالإِضافة إلى القلِيل الذي يكسبه أَبوه لا يكاد يقوم بِأود الأسرة، في الليل خاصه حين يصطدم النِيام بعضهم بِبعض وهم ممدون على فراشهم المبسوط على الأرض، الوالدان والإِخوة والأخوة والأَخوات يحشِرون فراشهم الواحد إلى جانِب الآخر فِي هذه الغرفة المستطيلة ذات النوافذ الأربع . لقد قالت له أمه عشرات المرات،

" ليتنا نستطيع أَن نستأجر أَحدى الغرف المجاورة أذن لاستطعنا أَن نتوسع قليلاً "
كانت تَكَررَ هٰذِهِ الأُمنِية في أَغلب الأيام ، ولاسيما حين تشعر بأَلم في ظهرها من جراء طي الفراش وحملها تلو الأخرى.
لِوضعها خلف الحاجز الخشبي نهاراً .
وساوره كثير من الدهشة إذ أَدرك أَنه يعرف كل هذه الأمور ، ومنذ زمن بعيد لطالما كررت أمه علي سمعه وسمع أُخوته المقولة المعروفة " الضيق بشع والبحبوحة جيدة ولو كانت في قبر " وكانت تردد
" ليتنا نستطيع أَن نستأجر غرفة آخرى، غرفة واحدة آخرى كي ينام ويدرس الأولاد فيها ونخصص هذه لي وزوجي ولِلطعام وَالضيوف .
قال في نفسه " يلغبائي "
أَنني متبلد الفكر هذا المساء وأتأَكد أنذاك آنها قالت كلماتها تلك وهي تعي ما تقول وأنه لم يكن مخطئاً فيما سمع.
اِنتهى إلى مدخل الحي الضيق الطويل الذي تقع الدار في نهايته .
كانت قَدماه ثقيلتي الوطأة كأنهما لا تريدان الوصول إلى الدار .
وتساءل في نفسه " ترى هل تشفى أُمه مِن مرضها وهل يستطيع أن يستأجر غرفه آخرى ذات يوم كي تجد الأَسرة شيئاً من البحبوحة ؟ "
ألا أنه صرف هذه الفكرة عن ذهنه. لم يكن يشغله ألان ألا شيء واحد، هو القبر الواسع .
ترى هل قدرت أمه أن سعر متر الأرض غالي جداً والمقبرة غاليه جداً؟
أَني له أن يشتري مقبرة؟
وأفتر فمه عن ابتسامة بريئة .

هذا منتهى المحال ..إذا ماتت .. وأقشعر جسمه لهذه الفكرة ، وصرخ بملىء صوته " لا سمح الله " ولكنه عاد يقول في نفسه هامسا إذا ماتت ستدفن في القبر الذي دفن فيه جده وجدته منذ عشرات الأعوام ومن يدري فإن صح ما زعم أبوه فقد دفن فيه أسلاف الأسرة جميعاً . وتخيل العظام القديمة في قبر الأسرة ، تلملِم نفسها قليلاً كي توسع مكانا لزائر جديد، تماما كما فعل هو وإخوته يوم وضعت أمه آخته الصغيرة لبضع سنوات خلت.

ضغط علي الصرة بكل قوته حتى تعبت رؤوس أصابعه، أُعجب بهذا الدواء الذي يحمله،

ما أجهل الصيدلي، مُورفِين ، نعم أنه يحمل إلي أمه المُورفِين وفيه الخدر، الخدر اللذيذ، لسوف تتخيل نفسها سعيدة، سعيدة جداً، في منزل واسع في منتهى الجمال

والفخامة كل شئ جميلاً ، جمِيلاً ، سيموت ويتلاشى الفقر والجوع والضيق وسترى آنها أصبحت غنية تعيش في بحبوحه واسعة .

حين دخل المنزل، كان أبوه قد أُحضر الممرضة التي تقطن غَير بعيد عن المنزل لتعطي أُمه الإبرة وكان كل شيء جاهز في أنتظار الدواء سارعت الممرضة إلى ملئ الحقنه وألتفتت إلى أمه وغرزت الإبرة في جسمها الجاف وأخرجتها برشاقة تدعو إلى الإعجاب وقالت لها الجملة التي أعتادت أن تكررها لكل مريض :

بالشِفاء.